وهي قصيدةٌ رائعة تنبض بإيمان قويّ وسكينةٍ نابعة من الرِّضا بقضاء الله ، ولسنا نستبعد أن يكون كعب بن زهير قد وضعها نصب عينيه حينما نظم قصيدته المشهورة في مديح رسول الله والاعتذار له .

ولكعبٍ قصيدتان مشهورتان في وقعة الخندق وهزيمة الأحزاب ، وفيهما يصوِّر ارتداد المشركين عن المدينة وقد خاب رجاؤهم ، في مزيج من الحماسة المتّقدة والإيمان المطمئنّ المستكين إلى إرادة الله :

أَبْقَى لنا حَدَثُ الحُروبِ بَقِيَّةً مِنْ خَيْرِ نِحْلَةِ رَبِّنا الوَهَّابِ

.....

ومَوَاعِظٍ من رَبِّنا نُهْدَى بها بِلِسانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الأَثْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فاشْتَهَينَا ذِكْرَهَا من بَعْدِ ما عُرِضَتْ عَلى الأَحْزَابِ
حِكَماً يَرَاها المُجْرِمُونَ بزَعْمِهِمْ حَرَجًا ويَفْهَمُها ذَوُو الأَلْبابِ [1]

ويختمها بهذا البيت الذي تتصاعد فيه سخريّته من قريش وتعييرُه لهم مُتَنَبِّئًا لهم بهزيمةٍ ساحقة :

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّها وَ لَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلابِ [2]

وهو بيتٌ يذكر ابنُ هشام أن الرّسول ﷺ قال له عنه : « لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا ! »[3]

ويقول في القصيدة الأخرى :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥٩-٢٦١ ، والنِّحلة : العطية ، وحَرَجا : حراماً .

(٢) سَخينَة : لقب كانت تُنَبَّزُ به قريش ، وهو طعام يتخذ من الدّقيق كان يؤكل في شدة الدهر وغلاء السعر فعيّروا بأكلها .

(٣) السيرة ، ج ٢، ص ٢٦١ ، وطبقات ابن سلام ، ص ٢٢٢ (بعبارة مختلفة بعض الشيء) .